مفهوم الأسلوب:

مفهوم الأسلوب في تراث العلماء العرب

لقد قدم العلماء العرب دراسات قيمة في مجال ماهية الأسلوب والوقوف عند حدوده النظرية والإجرائية، ويمكن رصد اتجاهين من جهود العلماء العرب القدماء في تحديدهم لمفهوم الأسلوب:

أولا ـ الاتجاه المعجمي: وهو الاتجاه الذي تطرق إلى المفهوم اللغوي للأسلوب ومن هؤلاء نذكر:

- ورد في لسان العرب لابن منظور: " ويقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، قال: والأسلوب الطريق والوجه، والمذهب، يقال :أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه، والأسلوب (بالضم): الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه".

وجاء في تاج العروس أن الأسلوب (بالضم) :"كل طريق ممتد...والأسلوب الوجه والمذهب قال هم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه طريقته...وكلامه على أساليب حسنة.

ـــ معجم مختار الصحاح: ورد فيه أن "الأسلوب (بالضم) الفن، يقال : أخذ فلان من أساليب القول أي في فنون منه".

ـــ قاموس المحيط: يذهب الفيروزبادي صاحب هذا القاموس بأن الأسلوب: هو الطريق.

- أساس البلاغة: جاء فيه :"...لسلكت أسلوب فلان: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة...".

وبالنظر إلى المفهوم المعجمي لكلمة "أسلوب" نخلص إلى أنه ذو بعدين :

-بعد مادي: الذي يمكن أن نلمسه في تحديد مفهوم الكلمة من حيث ارتبطت في مدلولها بمعنى الطريق الممتد أو السطر من النخيل .

-بعد فني: الذي يتمثل في ربطها بأساليب القول وأفانينه

كما أنه يحمل دلالة الاستقامة والمنهجية.

ثانيا- الاتجاه الاصطلاحي: لقد قدم العلماء العرب القدماء دراسات قيمة في مجال

معرفة ماهية الأسلوب والوقوف عند حدوده النظرية والإجرائية، فاهتموا بداية بالبحث في أسلوب القرآن الكريم مقارنين بينه وبين الأساليب الأخرى ومن هؤلاء ابن قتيبة والباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، وفيما يأتي ملخصا لبعض آرائهم:

1- **ابن قتيبة:** يرى ابن قتيبة أن الأسلوب هو قدرة الكاتب الفنية في التصرف في

المعاني فقال: "إنما يعرف فضل القرآن من كثُر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانهم في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون اللغات، فإنه ليس في الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصّيصة من الله" .

يمكن أن نلخص قول ابن قتيبة في النقاط الآتية:

- ربط ابن قتيبة بين تعدد الأساليب وطرائق العرب في آداء المعنى.
- ربط بين الأسلوب وآليات الصياغة .

2- **أبو بكر الباقلاني**: كانت دراسته في إعجاز القرآن الكريم هي خلاصة رأيه عن

مفهوم الأسلوب، حيث أبان أن إعجاز القرآن الكريم ناتج عن بلاغته، وبديع نظمه، فقد جاء القرآن الكريم على أسلوب لم يكن معهودا للعرب، فلا هو بالشعر، ولا هو بالسجع، ولا هو بقول الكهان كما ورد على لسان المشركين، فبين لهم المولى –عز وجل- أنه ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن.

وبهذا فإن الباقلاني قد أقام علاقة بين الأسلوب و الجنس الأدبي .

3- **عبد القاهر الجرجاني**: الأسلوب عنده هو الضرب من النظم والطريقة فيه، حيث

يقول:"واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرضا أسلوبا- والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره بمن يقطع أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله".

يركز عبد القاهر الجرجاني في قوله على ما يأتي:

- يعدّ الجرجاني الاحتذاء ضربا من الأسلوب أي من النظم .
- يتحدث الجرجاني عن الأسلوب كمصطلح من خلال العرض التطبيقي للاحتذاء.
- أشار الجرجاني إلى بروز شخصية المبدع في مقابل اختفاء شخصية المحتذي، فتتفوق شخصية المبدع المبتكر على المؤلف الثاني لأنه يعتمد على خصوصية الأول .

بيّن عبد القاهر الجرجاني أن الأسلوب ضرب من النظم، كما بيّن أن كل نظم له خصائصه التي يتميز به عن غيره.

الأسلوب عند النقاد والبلاغيين .

أولا- عند القدماء:

يتفق معظم النقاد والبلاغيين أن الأسلوب هو طريقة تعبير ومنهج تأليف وكيفية أداء، إلا أن نظرتهم إلى هذا المفهوم متعددة الأوجه والزوايا، وكل منهم يربطه بجانب معين من اللغة أو فرع منها، ويمكن أن نصنف هذه الرؤى إلى ثلاث فئات رئيسة هي:

1 **ـ الأسلوب / الفن :** يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأسلوب فن، فيركزون على الطريقة في التعبير، والكيفية في الأداء، والأداء الفني في هذا المقام لا يقصد به العناصر الجزئية للتأليف فحسب، وإنما القالب العام الذي يظهر به النص ويتشكل وفقه ومن هؤلاء، ابن رشيق، وابن خلدون، وابن قتيبة، والخطابي، ونمثل لهذا الاتجاه بمفهوم الأسلوب عن الخطابي .

الأسلوب عند الخطابي : يرى الخطابي أن الأساليب تختلف، وسبب اختلافها هو تعدد الموضوعات، فالأساليب تتعدد بتعدد الموضوعات التي يطرقها المؤلف، ويرى الخطابي أن الموضوع هو الذي يحدد الأسلوب اللائق به، وقال بأن الموضوع يتعدى الأسلوب الواحد، ومن هذا المبدأ استمد النقد قوته بأن ميز بين الشعراء في الموضوع الواحد فيحكم بجودة أحدهما على الآخر، ويذكر الخطابي في هذا الشأن

:"وهاهنا وجه آخر يدخل في هذا الباب وليس بمحض المعارضة، ولكنه نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة، وهو أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام، وواد من أوديته فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان ببابه من الآخر في نعت ما هو بإزائه، وذلك مثل أن تتأمل شعر أبي دوّاد الأيادي والنابغة الجعدي في صفة الخيل، وشعر الأعشى والأخطل ونعت الخمر... فإن كل واحد منهم وصّاف لما يضاف إليه من أنواع الأمور فيقال فلان أشعر في بابه ومذهبه من فلان في طريقته التي يذهبها في شعره ".

يركز الخطابي في قوله هذا على الطريقة الفنية التي يصاغ بها الموضوع، أي الكيفية التي ينسج بها الشاعر موضوعه، كما أنه دقق في التفاصيل التي يتفاوت فيها الشعراء

وطبقا لكيفية الآداء تتم المفاضلة بينهم، وبذا نخلص إلى أن الأسلوب عند الخطابي هو براعة الكاتب أو الشاعر في نسج موضوع معين.

2 ــ **<u>الأسلوب / النظم:</u>** يتمثل رأي أصحاب هذا الاتجاه أساسا في تشكل العبارة وكيفيتها، وحاولوا إبراز مقاييس الجودة التي تبنى عليها الأعمال الأدبية والإبداعية كالخطابة والشعر وشروط تأليفها كما تطرق عدد منهم إلى قضية الإعجاز القرآني معتمدين في ذلك على دراسة نظمه وإظهار اختلافاته عن سائر كلام العرب، ومن هؤلاء الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني.

الأسلوب عند الجاحظ : ركز الجاحظ في حديثه عن النظم على اهمية اللفظة ورأى بأنها العنصر الفاعل في العملية الشعرية من مبدأ فصاحتها، وجرسها ومعجمها وإيحاءاتها وحسن تناسقها مع الكلمات المجاورة لها، ونبه الجاحظ إلى أهمية تخيّر الألفاظ بما يخدم المعاني، كما في نظم الخطابة، يقول:"رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ".

وقد جعل الجاحظ تخير اللفظ في الدرجة الأولى، و جعل دور المعاني ومكانتها في مرحلة تالية لها" ... والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتميز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك".

إن المعاني والدلالات مشتركة بين جميع المبدعين، فلا تفاضل بينهم في هذا المستوى، وإنما تمايز الشعراء يكمن في كيفية استغلال الطاقات اللغوية من حيث اختيار الألفاظ المناسبة والتراكيب والصيغ، وجعل باطن النص ومعانيه مرتبط باستقامة ظاهره من الألفاظ والتراكيب.

إن النظم عند الجاحظ، يخص أسلوب الشعر وما يتعلق به من خصائص مقارنة بأشكال أخرى من الخطابات معتمدا على ركنين أساسيين في ذلك :

- اللفظة المفردة بشروطها.
- الوزن الذي يتحكم في الصورة العامة للتركيب .

<u>3-الأسلوب/ البلاغة :</u>

هناك من الدارسين من ربط مفهوم الأسلوب بالجانب البلاغي والدلالي، واهتم بتشكل المعاني وتناسقها، فالاختلاف والتباين بين المبدعين يكمن في الجوانب البلاغية، وضمن هذا الاتجاه نجد ابن الأثير، وأبا حيان التوحيدي، إذ يقول عند عرضه لأصناف الناس وفق قدراتهم العقلية :"وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ وهذا كما تقول: الملوك ساسة، ولكل واحد منهم خاصة، وكما يقولون: هؤلاء شعراء، ولك واحد منهم بحر، وهؤلاء بلغاء، ولكل واحد منهم أسلوب، وكما تقول: علماء، ولكل واحد منهم مذهب".

إن أبا حيان يخصص مصطلح الأسلوب للكلام البليغ من نثر وشعر، والشعر الجيد لا ينظر إليه فقط من أوزانه وألفاظه، وإنما ينظر إليه من بلاغته في معانيه.

نخلص في الأخير إلى أن النقاد اتخذوا الأسلوب قضية فنية يفاضلون بين الشعراء من خلالها، وأما البلاغيون فقد ربطوا الأسلوب بالكلام البليغ من نثر وشعر .

ثانيا-عند المحدثين:

معظم الدارسين المحدثين سلموا بوجود الأسلوب، إلا أنهم لم يتفقوا على تحديده وتحديد الإطار النظري الذي تتم دراسته في نطاقه، "وليس هناك تعريف واحد للأسلوب يتمتع بالقدرة الكاملة على الإقناع، ولا نظرية يجمع عليها الدارسون في تناوله"، حيث نجد بعض الدارسين نظروا للأسلوب من حيث تعلقه بالباث أو المرسل، وبعضهم علق الأسلوب بناصية النص ولغته والإمكانات الاختيارية التي يقدمها، وما يحمل من شحنات، وآخرون اعتبروا الأسلوب متعلق بالمتلقي، وتبعا لتعدد وجهات النظر تعددت مفاهيم الأسلوب نذكر منها:

1- **الأسلوب /الباث:** ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الأسلوب هو موقف يتخذه صاحب النص نحو موضوع معين، فيعبر عنه باللغة التي تتشكل بنظام خاص له طرائقه وكيفياته المحددة فينتج نصا .
"إن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه وصورة لشخصيته

هو...استمده من نفسه وصاغه بلغته وعباراته، دون تقليد سواه من الأدباء لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره وكيفية نظره إلى الأشياء، وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته هي أساس تكوين الأسلوب"[1]، ولعل ذلك راجع إلى أن عملية الإنشاء تبدأ بوجود مثيرات أو انفعالات نابعة من ذات المنشئ، وقد تكون خارجية فرضتها البيئة المحيطة، هذه المحركات تتحول إلى أفكار في ذهن صاحبها، ثم تترجم إلى أقوال وعبارات تشكل أسلوب الباث .

"وهكذا تتنزل نظرية تحديد الأسلوب منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لمخبآت شخصية الإنسان ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، وما صرّح به وما ضمّن، فالأسلوب جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقا".
واستنادا لآراء هذا الاتجاه فإنه من المؤكد أن تتفرد الأساليب تبعا لاختلاف السمات

الذهنية والانفعالية لدى المنشئين "فكل منشئ يمتلك عالما من المعاني والأخيلة، وطريقة في الصياغة والتعبير مما يجعل له –في النهاية- شخصيته الأسلوبية ذات السمات والملامح المتميزة التي تميزه عن نظرائه من المنشئين".

وعلى هذا الأساس فإن الأسلوب يعبر تعبيرا كاملا عن شخصية صاحبه، فيعكس أفكاره، ويظهر صفاته الإنسانية التكوينية والإبداعية .

2- **الأسلوب/ النص:** تستند العملية الإبداعية في تشكيلها إلى ثلاث دعائم، هي

المخاطِب والمخاطَب والخطاب، وتتشكل هذه العناصر وفق قاعدة التكامل.

ويفرق علماء الأسلوب الذين يحددون الأسلوب من زاوية النص بين وضعين للغة

---

[1] - نجم الدين إشولا راجي: أسلوب الكتابة في اللغة العربية، ط1، شمس للنشر والتوزيع، 2009م، ص 42 .

هما : وضع معجمي ثابت، ووضع استعمالي متغير.

ولعل هذا المبدأ يقودنا إلى ثنائية دوسوسير اللغة Language والكلام Parole

حيث يشتمل مستوى اللغة على قواعد نسقية وهي ذات طبيعة مجردة وثابتة، بينما يمثل مستوى الكلام اللغة حيث توظف أو تمارس عند الأشخاص.

ومن هذا المستوى الأخير يمكن أن نميز مستويين من الاستخدام اللغوي هما:

أ-استخدام اتصالي عادي: يؤدي وظيفة نفعية.

أ- استخدام اتصالي جمالي: يؤدي وظيفة نفعية إمتاعية، كما هو موضح في الخطاطة الآتية:

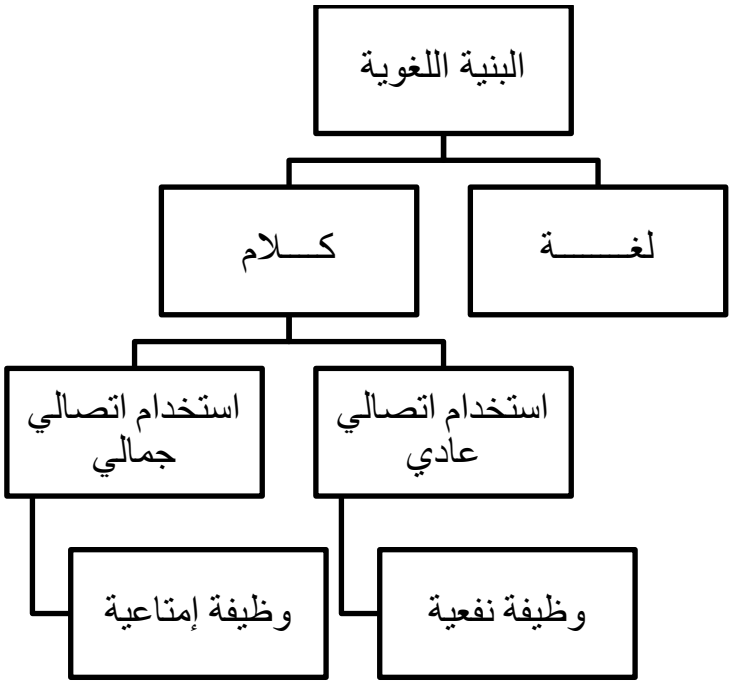

ومن المؤكد أن "ثمة فرق بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي، فأولهما يعتمد على المباشرة...ويهدف إلى التبادل النفعي، ويتسم هذا المستوى من الاستخدام بمحدودية معجمه، إذ ليس في ألفاظه الجديد...أما الخطاب الأدبي فيصدر عن ملَكة عند منشئه، ويسعى إلى أن يمس إحساس متلقيه مسًّا، سامعا كان أم قارئا، كما يتميز أن ألفاظه مختارة ومفرداته منتقاة ومعانيه مبتكرة، قد يفهمه متلقيه دون عناء، وقد يحتاج لفهمه ولبيان ما يراد به إلى إمعان الفكر وإعمال العقل".

وبهذا فإن أصحاب هذا الاتجاه ينظّرون للأسلوب على أنه نوع من الخطاب الفني، يتشكل من وحدات مختلفة نحوية وصرفية ومعجمية، وشرط فنيته أن يخرج هذا التشكيل عن المألوف والنمطية، وذلك "بأن يبتكر صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وُضع له...".

3-**الأسلوب /المتلقي:**

يعد الأسلوب عند أصحاب هذا التيار انزياحا (اختياريا)، ويكون هذا الانزياح مصحوبا بشحنات ناجمة عن قوة الضغط الممارس من طرف اللغة، من أجل تطوير ذاتها، يقول ريفاتير في تعريفه للأسلوب: "هو ذلك الإبراز mis en relief الذي يفرض على انتباه القارئ بعض عناصر السلسلة التعبيرية".ويضيف فيقول:"أعني بالأسلوب الأدبي كل شكل ثابت permanent فردي ذي مقصدية أدبية"، والشكل الثابت عنده يعني "ثبات الخصائص الشكلية التي تميز كل عمل أدبي"،وأما المقصدية فهي "لا تعني بالضرورة تلك الحمولة الدلالية، بل كل مقصدية تجد في النص بعض ما يبررها على مستوى وحداته البانية، أي تلك الحمولة الجمالية".

من هذا التعريف ندرك الأهمية التي أولاها ريفاتير للقارئ[2] وجعله عنصرا مشاركا في عملية التسنين، وأساسيا في عملية التفكيك، وذلك بعدم تجاوز القارئ ذلك البروز لأن في ذلك تشويه لمقصدية النص، وإلزامية الوقوف عنده لاكتشاف أبعاده الدلالية وسماته الجمالية.

وقد ترتب عن استخدام القارئ النموذجي فكرة أساسية مفادها أن النص رغم طابعه القار شكلا (لغة) إلا أنه متغير من الناحية الأسلوبية، فما استحسنه قارئ في فترة زمنية محددة نتيجة منبهات أسلوبية أثارته، قد يستهجنه قارئ آخر في فترة زمنية لاحقة بسبب عدم قدرة النص الحفاظ على منبهاته الأسلوبية، كما أن النص أيضا قادر على خلق سمات أسلوبية مؤثرة حينا آخر مما يعني أن أسلوب النص متغير ومتحرك على الدوام.

مفهوم الأسلوبية:

إن الأسلوبية علم يصعب تقعيده أو تقنينه ومن ثمة تعريفه، وسبب ذلك يكمن في تعدد اتجهاتها و تنوع مجالاتها "فهي دراسة للغة، وهي أيضا دراسة للكائن المتحول باللغة، وهي كذلك دراسة للعمل الإبداعي، ودراسة لعملها الذاتي المبدع للعمل الإبداعي".

ومع هذا فإن معظم الدارسين يتفقون على أن الأسلوبية في أبسط معانيها هي :الدراسة العلمية للأسلوب تهدف إلى الكشف عن خصائصه الجمالية، وبنياته الفنية، تتكئ على جملة من الأدوات الإجرائية لرصد الظواهر الأسلوبية التي تؤدي إلى مقصدية ذات حمولة جمالية.

ومن جملة التعريفات التي حاولت أن تضبط مفهوم الأسلوبية ما أتى به عبد السلام المسدي في قوله:"فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني وما تولد عنه في مختلف اللغات الفرعية أو انطلقنا من المصطلح الذي استقر ترجمة له في العربية وقفنا على دال مركب جذره "أسلوب" Style ولاحقته "ية

---

[2] - القارئ النموذجي: هو "مجموع قراءات"، فلا وجود لقارئ بذاته يسمى كذلك، ولكنه قارئ مجرد يشكل حصيلة لمتوسط ردود أفعال القراء تجاه نص معين، ينظر: يوسف وغليسي: مجلة علامات (مصطلح الانزياح بين ثابت اللغة المعيارية الغربية، ومتغيرات الكلام الأسلوبي العربي)، ج64، مج 16، فبراير 2008م، ص 192 .

ique،وخصائص الأصل تقابل انطلاقا أ بعاد اللاحقة، فالأسلوب –وسنعود إليه – ذو مدلول إنساني ذاتي، وبالتالي نسبي، واللاحقة تختص –فيما تختص به- بالبعد العلماني العقلي، وبالتالي الموضوعي، ويمكن في كلتا الحالتين تفكيك الدال الاصطلاحي إلى مدلوليه بما يطابق عبارة، علم الأسلوب Science du style لذلك تعرّف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب" .

وهذا يعني أن الأسلوب موضوع الأسلوبية، فتعمد إلى دراسة خصائصه الإنسانية (ذاتية) دراسة علمية، بهدف كشف مميزاته الجمالية بطريقة موضوعية .

ويعد تعريف عبد السلام المسدي للأسلوبية ذو بعد لساني ، إلا أن هناك من يعرفها انطلاقا من بعدها الجمالي، على غرار جاكوبسون الذي عرف الأسلوبية "بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا"

وهناك من انطلق منطلقا مزدوجا لتحديد مفهوم الأسلوبية، يمتزج فيه المقياس اللساني بالبعد الأدبي الفني "فإذا كانت عملية الإخبار علة الحدث اللساني أساسا فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة، وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية"